منهجيات الدعوة والتربية في سورة آل عمران

دراسة موضوعية

إعداد الباحث/ عاطف عبد الستار عبد المجيد حمّاد

ملخص البحث

لقد بدأت البحث بفضل الله تعالى بمقدمة موجزة بينت فيها الحاجة الماسَّة إلى تدبر القرآن الكريم والوقوف على أسراره ومعانيه، ثم قمت بعمل خطة مفصلة للبحث ذكرت فيها أسباب اختياري للموضوع في نقاط محددة، موضحًا إشكالية البحث وفيها الرد على تساؤل هل هناك منهجيات تربوية ودعوية في سورة آل عمران؟ وما هذه المنهجيات؟

ولقد حددت أهدافًا للبحث وذكرت الجهود السابقة وبينتُ منهجي في البحث، وكذلك عملي فيه.

وقسّمت البحث إلى أحد عشر مبحثًا، تحدثت في المبحث الأول عن التعريفات المهمة الواردة به، ثم عددت المنهجيات محلّ الدراسة وهي الاصطفاء، الحوار مع أهل الكتاب والإنصاف في الحكم عليهم، نبذ الفرقة والحثّ على الاعتصام والوحدة، تصويب الخطأ في التصورات، الحجة والدليل والبرهان، التعويض والجبر، التحذير من بطانة السوء، الصبر من عدة المؤمنين، الدعوة وشروط الخيرية، الارتباط بالدعوة والمنهج وأن كل الرسل بشر وكل البشر كُتب عليه الفناء، وأخيرًا منهجية الإنصاف في الحُكم. ثم أنهيت البحث بالنتائج، والتوصيات والفهارس.

Summary

I began the research, thanks to God Almighty, with a brief introduction in which I explained the urgent need to contemplate the Holy Qur'an and learn about its secrets and meanings. Then I made a detailed plan for the research in which I mentioned the reasons for my choice of the topic at specific points, explaining the problem of the research and in which I responded to the question: Are there educational and advocacy methodologies in Surah Al Imran? What are these methodologies?

I have defined research objectives, mentioned previous efforts, and explained my research methodology, as well as my work in it.

I divided the research into eleven sections. In the first section, I talked about the important definitions contained therein, then enumerated the methodologies under study, which are selection, dialogue with the People of the Book and fairness in judging them, rejecting division and urging adherence and unity, correcting errors in perceptions, argument, evidence and proof. Compensation and reparation, warning against hidden evil, patience from many believers, advocacy and conditions of charity, connection to the call and method and that all messengers are human and all human beings are doomed to extinction, and finally the methodology of fairness in governance. Then I finished the research with results, recommendations and indexes.

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب الأرض ورب السماء، خلق آدم وعلمه الأسماء. ونَزّل القرآن لما في الصدور شفاء، فأضاءت به قلوب العارفين والأتقياء...

نحمده تبارك وتعالى على النعماء والسراء، ونعوذ بنور وجهه الكريم من جَهد البلاء، ودرك الشقاء، (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص/ ٢٩) . (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)(المدثر/ ٥٤-٥٦).

وبعد، ، ،

إن كثيرًا من الناس يقرأون القرآن ولكنّهم يغفلون عن أهم هدف من وراء القراءة، وهو تدبّر كلّ آية، واستخلاص العبر والدروس منها، وتطويع سلوكنا وفقًا لما استخلصناه..

ولما كان القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلُق من كثرة الرد، ولما كانت كل سورة في كتاب الله تعالى لها مدلولها الخاص ومفهومها العام الذي يتسق ويتناسق مع القرآن إجمالا وإن بدت كل سورة وحدة مستقلة في ذاتها من البداية إلى النهاية.

وفي الوقت نفسه تبدو السورة منه كأنها آية في سورة أكبر؛ هي القرآن الكريم، وآثرت أن أكتب في بعض منهجيات الدعوة والتربية في سورة آل عمران بحثًا مستقلًّا للترقية في قسم التفسير وعلوم القرآن.

وفي اجتهاد بشري حاولت فيه أن أُلِمَّ ببعض الآيات المتشابهة، سواء تشابه لفظًا أو معنًى، تؤدي إلى منهجية واحدة جعلت منها منهجيات مختلفة في الدعوة والتربية، مستلهمًا من الله العون وأسأله إحسان القصد وقبول العمل.

أسباب اختيار الموضوع:

١) تناولت سورة آل عمران موضوعات هامة في التربية والإصلاح والتي من مقاصدها:

. أنها عالجت قضايا ضخمة كقضية عيسى عليه السلام، وقضية التوحيد، وخطر الشِرك ونسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى.

. بيّنت كيف يتكون الجنين في رحم أمه وأن عيسى كباقي البشر.

. قضية غزوة أُحُدٍ وضخامة القضية وكيف أن الله سبحانه وتعالى رصد تفاصيل المعركة التي خاضها السلف الصالح بقيادة سيد المجاهدين صلى الله عليه وسلم.

. بيّنت مكامن الضعف وخوالج النفس بأدق تفاصيلها.

. بيّنت أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كسائر الرسل، وأنه سيموت كما ماتوا.

. أن الحياة في الشهادة.

٢) أنها من السور الطوال في القرآن الكريم والتي يمكن تقسيمها إلى منهجيات متعددة.

٣) قلة من كتبوا فيها باستفاضة، مقارنةً بسورة البقرة.

٤) تقع في الترتيب بين سورة البقرة، التي كأنها تشرح القرآن الكريم كاملا، فقد تضمنت مقاصد الإسلام الرئيسية وكلّياته الأساسية ومن مقاصدها:

. دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، ونبذ ما سواه من الأديان.

. الحديث عن أهل الكتاب والدعوة إلى ترك باطلهم والدخول في دين الإسلام.

. تتضمن عرض شرائع هذا الدين تفصيلا

. ذِكر الوازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعظم مخالفتها.

وبين سورة النساء والتي من أهدافها الرئيسية ضرورة توحيد الله عز وجلّ، وأهمية التقوى وأنها هي أساس قبول الأعمال وأن الأسرة هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع السليم من خلال تنظيم المجتمع المسلم والفرد المسلم وتطهير المجتمعات من التوحش.

٥) إثراء المكتبة الإسلامية.

مشكلة البحث:

١) تكمن مشكلة البحث في إيجاد دراسة وافية شافية، تتسم بالاختصار وعدم الإطالة وفي الوقت نفسه تربط مجموعة من المنهجيات في مجال الدعوة والتربية والإصلاح بشكل متناسق يُظهر جمال النسق القرآني وطرحه لقضايا مختلفة، وتصلح أن تكون مثالا يُحتذى به في غيرها من السور، وكذلك تجيب عن تساؤل: هل هناك منهجيات للدعوة والتربية في سورة آل عمران؟ وما هذه المنهجيات؟

أهداف البحث:

١) محاولة إرساء فهم منهجي للسورة
٢) التعرف على منهجيات التربية والدعوة والإصلاح في السورة.
٣) تحقيق التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم "أفلا يتدبرون"
٤) تقديم بحث مُختصَر من خلال الدراسة يصلُح أن يكون بحثًا للترقية.

أهمية الموضوع:

أ. رصد منهجيات جديدة للسورة الكريمة.

ب. دعوة إلى التفكر في كل سور القرآن الكريم واكتشاف مجموعة من المنهجيات تساعدنا على فهم السورة.

ت. تحفيز طلاب العلم والدارسين على إيجاد علاقة بين كل سورة باعتبارها وحدة مستقلة والسور كلها بوصفها بناءً متكاملًا.

الجهود والدراسات السابقة:

١) التفسير المنهجي سورة آل عمران، لـ "فضل عباس"، سنة ٢٠٠٥، الناشر: دار المنهل للنشر والتوزيع.

٢) رسالة دكتوراة، "منهج الدعوة إإلى الله تعالى من خلال سورة آل عمران" للباحث/ عبد القادر سيد عبد الرؤوف، سنة ٢٠٠٦، جامعة الأزهر/ جمهورية مصر العربية.

٣) رسالة ماجستير منهجيات الإصلاح والتغيير في ضوء سورة آل عمران دراسة موضوعية، للباحث/ عطا يوسف وادي، الجامعة الإسلامية/ غزة/ كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن سنة ٢٠١٢ م.

منهج البحث:

اعتمدت في دراستي ما يناسب بحثي من مناهج البحث العلمي، على النحو التالي:

١. المنهج الاستنباطي الذي يربط المقدمات بنتائجها والأشياء بعللها، بدءًا من الكليات إلى الجزئيات، ثم يستنبط فكرة من أخرى بالاستدلال العقلي.

٢. المنهج الاستقرائي الذي يتتبع موضوع الدراسة في جُلِّ مصادرها بالتحرّي والتجريب بدءًا بالجزئيات وانتهاءً بقوانينها الكلية.

٣. المنهج الوصفي التحليلي والذي يعتمد على تفكيك العناصر الأساسية للموضوعات محل البحث، ومن ثَمَّ دراستها بأسلوب متعمق، وفي ضوء ذلك يتم استنباط أحكام أو قواعد؛ يمكن عن طريقها إجراء تعميمات تساعد في حل المشاكل الاجتماعية، ويشيع استخدام ذلك المنهج في العلوم الشرعية والأدبية والفقهية والاجتماعية بجميع أطيافها.

عملي في البحث:

اتبعت في الدراسة عدة أمور منهجية، بيانها كالتالي:

١) استخراج منهجيات سورة آل عِمران كافَّة، وتحديد بعض المنهجيات محل البحث.

٢) جمع آيات الاستدلال المتعلقة بكل منهجية على حِدة، سواء كانت صريحة أو بالإشارة.

٣) اختيار آية واحدة من آيات الاستدلال لكل منهجية، ليكون تفسيرها شرحًا وافيًا للمنهجية المشار إليها.

٤) التزام الأمانة العلمية في نقل المعلومات، والأقوال والأدلَّة من المصادر والمراجع المعتبرة.

٥) التركيز على موضوع الدراسة، وتجنب الإطالة في الشرح.

٦) ترقيم الآيات، وبيان سورها مضبوطة بالرسم العثماني.

٧) تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، وإثبات الكتاب، والباب والجزء، والصفحة، وبيان ما ذكره أهل الشأن في درجتها إن لم تكن في الصحيحين، أو أحدهما، فإن كان الحديث في الصحيحين، أو أحدهما، اكتفيت بعزو الحديث إليهما، أو إلى أحدهما.

٨) التعريف بالمصطلحات من كتب الفن الذي يتبعه المصطلح، أو من كتب المصطلحات المعتمدة.

٩) توثيق المعاني من معاجم اللغة المعتمدة.

١٠) العناية بقواعد اللغة العربية، والإملاء، وعلامات الترقيم.

١١) العزو يكون بذكر اسم الكتاب، والمؤلف، وباقي البيانات، والجزء والصفحة.

١٢) أترجم لأعلام غير المشهورين بإيجاز، وأترك الترجمة للصحابة المشهورين.

١٣) تكون الخاتمة متضمنة أهم النتائج والتوصيات، وأُتبِعُ ذلك بالفهارس الفنية التي تبين ما تضمنه البحث.

خُطَّة البحث:

المبحث الأول: (تعريفات مفتاحية)

. المطلب الأول: تعريف المنهج لغةً واصطلاحًا

. المطلب الثاني: تعريف التربية لغةً واصطلاحًا

. المطلب الثالث: تعريف الدعوة لغةً واصطلاحًا

المبحث الثاني: منهجية التوحيد

المبحث الثالث: منهجية الدعاء وسرعة الاستجابة

المبحث الرابع: منهجية الاصطفاء

المبحث الخامس: منهجية الحوار مع أهل الكتاب

المبحث السادس: منهجية الإنصاف في الحُكم

المبحث السابع: منهجية الحجة والدليل والبرهان

المبحث الثامن: منهجية الدعوة وشروط الخيرية

المبحث التاسع: منهجية تصويب الخطأ في التصورات

المبحث العاشر: منهجية نبذ الفُرقة والحثّ على الاعتصام والوحدة

المبحث الحادي عشر: منهجية الصبر من عدة المؤمنين

النتائج والتوصيات والفهارس.

المبحث الأول

(تعريفات مفتاحية)

المطلب الأول: تعريف المنهج لغةً واصطلاحًا:

أ – تعريف المنهج لغةً:

المنهج لغةً: (نَهَجَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ.

وَهُـوَ مُسْـتَقِيمُ الْمِنْهَـاجِ. وَالْمَـنْهَجُ: الطَّرِيـقُ أَيْضًـا، وَالْجَمْـعُ الْمَنَـاهِجُ. وَالْآخَـرُ الِانْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فُلَانٌ.

يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مَبْهُورًا مُنْقَطِعَ النَّفَسِ. وَضَرَبْتُ فُلَانًا حَتَّى أَنْهَجَ، أَيْ سَقَطَ.

وَمِـنَ الْبَـابِ نَهَـجَ الثَّـوْبُ وَأَنْهَـجَ: أَخْلَـقَ وَلَمَّـا يَنْشَـقَّ، وَأَنْهَجَـهُ الْبِلَـى. قَـالَ أَبُـو عُبَيْـدٍ: لَا يُقَالُ نَهَجَ[1].

ب – مفهوم المنهج اصطلاحًا:

تتعـدد تعريفـات المـنهج مـن الناحيـة الاصـطلاحية وتتنـوع، ويمكننـا مـن خـلال مـا كتـب بعض الباحثين، أن نحدد اتجاهات خمسة عامَّة على الأقل:

الاتجاه الأول: يتم التركيز فيه على وصف المحتوى (المادة الدراسية)،

الاتجـاه الثـاني: يظهـر فيـه التركيـز علـى وصـف الموقـف التعليمـي مـن خـلال اعتبـار المنهج خبرة تربوية متنوعة المجالات.

الاتجـاه الثالـث: يظهـر فيـه التركيـز علـى وصـف مخرجـات العمليـة التعليميـة مـن خلال الجهد المركب الذي تخططه المدرسة.

الاتجـاه الرابـع: يظهـر فيـه المـنهج بوصـفه نظامًـا هـو جـزء مـن النظـام التربـوي، وهـذا الاتجاه يحدد مفهوم المنهج ومكانته في النظام التربوي بشكل دقيق وشامل.

الاتجـاه الخـامس: ركـز فيـه البـاحثون في علـم المنـاهج المدرسـية علـى أنمـاط التفكـير الإنساني، وبخاصة التفكير التأملي، والتفكير الاستقصائي المنظم.

وهذا ما يعنينا في هذه الدراسة لمنهجيات التربية والدعوة في سورة آل عمران.

المطلب الثاني: تعريف التربية لغةً واصطلاحًا:

أ – التربية لغةً:

التربية اسم مشتق من الربّ.

"الربّ: يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدّبر والمربيّ والقيّم والمنعم. ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أُطلق على غيره فيقال: رَبُّ كذا.

ويُقال: رَبَّه يُرَبّه: أي كان له رَبّا. وفيه [ألك نعمةٌ تُربيها] إي: تحفظها، وتُراعيها وتُربيّها كما يُربي الرجل ولده. يُقال: رَبَّ فُلان ولده يَرُبُّه رَبًّا ورَبَّتَه ورَبَّاه كله بمعنى واحد.

والرباني هو: منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون للمبالغة، وقيل هو من الرَّب بمعنى التربية.

وقيل للعلماء: ربانيون؛ لأنهم يربُّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها. والرَّبَّانيُّ: العَالمُ الراسخُ في العلمِ والدِّين. أو الذي يطلبُ بعلمه وجه الله[٢]. "والربوبية التي لله شاملة لكافة المجالات التي يكون بها المؤمن مؤمنا يترقى في الإيمان، ليكون من المخلصين الصدّيقين المجاهدين في سبيل إعلاء دينه وكلمته، وغاية الربوبية تعليمية، تربوية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، فكرية، عقلية، نفسية، روحية، تتوخى إصلاح البدن، والقلب، والنفس والروح، والبيت، والشارع، والمصنع، والحقل، والمجتمع، والدولة، والعالم بأسره، ويتهيأ بها الإنسان ليكون جديرًا بخلافة الله في الأرض. واسم الربِّ فيه تربية الخُلُق، فهو مُربِّي نفوسِ العابدين بالتأييد، ومربّي قلوب الطالبين بالتسديد، ومربِّي الأبدانِ بوجود النعم، ومربِّي الأرواح بشهودِ الكَرم".[٣]

ب – التربية اصطلاحًا:

"يختلف تعريف التربية اصطلاحًا باختلاف المنطلقات الفلسفية، التي تسلكها الجماعات الإنسانية في تدريب أجيالها، وإرساء قِيمِها ومعتقداتها، وباختلاف الآراء حول مفهوم العملية التربوية وطرقها ووسائلها[٤]، فقد ورد في تعريف التربية تعاريف متعددة منها:

- التربية: إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام.[٥]
- والتربية: تعني الرعاية والعناية في مراحل العمر الأدنى.[٦]
- والتربية: الزيادة والنماء.
- ومن معاني التربية: الإصلاح والتهذيب، حيث تُبذل جهودٌ كبيرة ومستمرة لرعاية الطفل، وإصلاح أحواله.[٧]

أما المقصود بالتربية الأسرية: "فتعني رفع درجة وعي الفرد من مختلف الأعمار بشتى الظروف والملابسات والنواحي المختلفة المرتبطة بحياة الأسرة من الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والنفسية، بغية تحقيق السعادة والاستقرار للأسرة والمجتمع[٨]

"لا بد من أن ترتبط التربية بمفهوم التدريج، وذلك أن التثقيف يخضع لمراحل عديدة، وكميات متباينة من المعلومات، وكل مرحلة يمرُّ بها الطفل تحتاج إلى رعايةٍ خاصة، ومعرفة بقدرات الطفل، ومدى استيعابه للعلم والتربية، فهذا يتطلب دقة في التنظيم، والضوابط، والمهارات في تلقين الطفل ما يحتاج إليه، وجعله عنصرًا فاعلًا لا منفعلًا، وذلك بإثارة تفكيره، والعناية بروحه، وتحقيق حاجاته العلمية والنفسية وغيرها".[٩]

المطلب الثالث: تعريف الدعوة لغةً واصطلاحًا:

أ – الدعوة لغةً:

مشتقة من الفعل الثلاثي دعا يدعو دعوة، والاسم: الدعوة، والقائم بها يسمى داعية، والجمع: دعاة. ولكلمة الدعوة في اللغة عدة معان: النداء، والطلب، والتجمع، والدعاء، والسؤال، والاستمالة.

قال الزمخشري: دعوت فلانا وبفلان ناديته وصحت به[١٠]، وقال الرازي: والدَّعوة إلى الطعام بالفتح يقال: كنا في دعوة فلان ومدعاة فلان وهو مصدر والمراد بهما: الدعاء إلى الطعام.

ب – الدعوة اصطلاحًا:

كلمة الدعوة من الألفاظ المشتركة، فإنه يراد بها في الغالب معنيان:

- الأول: الدعوة بمعنى الإسلام أو الرسالة.
- الثاني: الدعوة بمعنى عملية نشر الإسلام وتبليغ الرسالة.

وعلى المعنى الأول: (الدعوة بمعنى الإسلام أو الرسالة) جاءت تعريفات اصطلاحية كثيرة، ومنها:

قيل: هي دين الله الذي بعث به الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – جميعا، تجدد على يد محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم النبيين، كاملًا وافيًا لصلاح الدنيا والآخرة.

وقيل: هي دين الله الذي ارتضاه للعالمين؛ تمكينًا لخلافتهم، وتيسيرًا لضرورتهم، ووفاءً بحقوقهم، ورعايةً لشؤونهم، وحمايةً لوحدتهم، وتكريمًا لإنسانيتهم، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم.

وأما على المعنى الثاني: الدعوة بمعنى عملية نشر وتبليغ الإسلام (فجاءت أيضا على تعريفات كثيرة، ومنها:

عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بقوله الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه[١١]، وقيل: هي تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة.[١٢]

المبحث الثاني

منهجية التوحيد

يظهر جليًّا في مقصد السورة العام أقوال عدة، ولعل أشهرها هو: ((**إثبات التوحيد والعمل بمقتضياته**))، فكثير من آيات السورة وموضوعاتها ومقاصدها تدور حول هذا المقصد، وهو إثبات التوحيد بالأدلة النقلية والعقلية، وبطلان عقائد النصارى من خلال الحوار مع وفد نصارى نجران، وتحدثت عن أحوال الموحدين عمران وزوجه ومريم وعيسى وزكريا ويحيى وإبراهيم، وعن المعركة بين أهل التوحيد وأهل الكفر، وكشفت عن أحوال أهل الإيمان وضعفهم من خلال غزوة أُحد وأسباب فشلهم وفق السنن، ثم ذكرت أخيرًا دلائل التوحيد والإيمان بها.[١٣]

ونستدل على بعض ما قدمناه كما يلي:

آيات الاستدلال:

١) ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾

٢) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾﴾

٣) (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ﴿١٨﴾.

٤) (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ﴿٢٦﴾.

٥) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

.

٦) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)﴿٦٤﴾.

٧) (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ﴿٦٧﴾.

٨) (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

٩) (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿٨٤﴾.

١٠) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾.

١١) (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿١٢٦﴾.

١٢) ﴿مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

١٣) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

١٤) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

١٥) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾.

والخلاصة: إن السورة تُعلمنا وتُريد منا: أن تستقر عقيدة التوحيد في نفوسنا من خلال الأدلة العقلية والنقلية، وأن الله اصطفانا بهذا التوحيد، وأن لا نقع فيما وقع فيه أهل الكتاب، وأنه أساس النصر في المعركة مع العدو، من خلال الطاعة والاستسلام وتهذيب النفس، وأن نزيد إيماننا بالتأمل في دلائل قدرته الكثيرة، فلنقرأ سورة آل عمران على نية معرفة إثبات التوحيد والعمل بمقتضياته.

الآية المُفسّرة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾.

افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بألوهيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التألّه والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام (القيوم) الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح.

ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما

أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه(١٤).

المبحث الثالث

منهجية الدعاء وسرعة الاستجابة

للدعاء أهمية كبيرة في الدين الإسلامي؛ فهو مخ العبادة، لفضائله الكبرى، وبسبب حاجة الإنسان الماسة للدعاء في حياته، فقد حثّنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على دعائه، كما حثّنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، على الدعاء كما ورد في الأثر الشريف؛ "لن ينفع حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل؛ فعليكم بالدعاء "و"ليسَ شيءٌ أكرمَ على اللهِ تعالَى من الدُّعاءِ".

آيات الاستدلال:

١) (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ(٨))

٢) (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٩)

٣) (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

٤) (.....وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

٥) (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(٣٩)

٦) (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣)

الآية المُفسّرة: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)

ذكر ابن كثير في كتابه "تفسير القرآن الكريم"(١٥) أنه لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، طَمِعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ، وإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ضَعُفَ ووَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَاشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، وَإِنْ كَانَتِ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا، وَقَالَ: (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ) أَيْ: مِنْ عِنْدِكَ {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} أَيْ: وَلَدًا صَالِحًا {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ)أَيْ: خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهًا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلِّ خَلْوَتِهِ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ، وَصَلَاتِهِ .ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ: (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) أَيْ: بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى .قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ :إِنَّمَا سُمِّيَ يَحْيَى لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَاهُ بِالْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) رَوَى الْعَوْفِيّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الشَّعْثَاءِ والسُّدي وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) أَيْ: بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ :هُوَ أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَالَ قَتَادَةُ :وَعَلَى سُنَنِهِ وَمِنْهَاجِهِ .وَقَالَ ابْنُ جُرَيْج :قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ: كَانَ يَحْيَى وَعِيسَى ابْنَيْ خَالَةٍ، وَكَانَتْ أُمُّ يَحْيَى تَقُولُ لِمَرْيَمَ :إِنِّي أَجِدُ الَّذِي فِي بَطْنِي يَسْجُد لِلَّذِي فِي بَطْنِكِ فَذَلِكَ تَصْدِيقُهُ بِعِيسَى: تَصْدِيقُهُ لَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ عِيسَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ عِيسَى، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: (وَسَيِّدًا) قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَغَيْرُهُمْ :الْحَكِيمُ وَقَالَ قَتَادَةُ: سَيِّدًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ :السَّيِّدُ الْحَكِيمُ الْمُتَّقِي وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ .وَقَالَ

عَطِيَّةُ :السَّيِّدُ فِي خُلُقِهِ وَدِينِهِ .وَقَالَ عِكْرِمَةُ :هُوَ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ .وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ :هُوَ الشَّرِيفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ هو الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: (وَحَصُورًا) رُوِي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَعَطِيَّةَ العَوْفِي أَنَّهُمْ قَالُوا :هُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ .وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ :هُوَ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ .وَقَالَ الضَّحَّاكُ :هُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا مَاءَ لَهُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ، أَنْبَأَنَا جَرِيرٌ، عَنْ قَابُوسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الحَصُور :الَّذِي لَا يُنْزِلُ الْمَاءَ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي هَذَا حَدِيثًا غَرِيبًا جِدًّا فَقَالَ :حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبٍ الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا عُبَادَةُ -يَعْنِي ابْنَ الْعَوَّامِ-عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسَيَّب، عَنِ ابْنِ الْعَاصِ -لَا يَدْرِي عَبْدُ اللَّهِ أَوْ عَمْرٌو-عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) قَالَ: ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ: "كَانَ ذَكَرُهُ مِثْلَ هَذَا".

ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنان، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ القَطَّان، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ؛ أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ المسَيَّب، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ :لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لَا يَلْقَاهُ بِذَنْبٍ غَيْرَ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، ثُمَّ قَرَأَ سَعِيدٌ :{وَسَيِّدًا وَحَصُورًا }ثُمَّ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ الْحَصُورُ مَا كَانَ ذَكَرُهُ مِثْلَ ذِي وَأَشَارَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ القَطَّانُ بِطَرَفِ إِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ. فَهَذَا مَوْقُوفٌ وَهُوَ أَقْوَى إِسْنَادًا مِنَ الْمَرْفُوعِ، بَلْ وَفِي صِحَّةِ الْمَرْفُوعِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

المبحث الرابع

منهجية الاصطفاء

الاصطفاء في اللغة بمعنى الاختيار، والصفو هو نقيض الكدر، بمعنى إبجاده صافيا عن الشوب الموجود في غيره. كما أنّ الاجتباء يلتقي مع الاصطفاء أيضا في المعنى...

قال الراغب الأصفهاني[١٦] (أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب، ومنه الصفا للحجارة الصافية قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(سورة البقرة/١٥٨)، وذلك اسم لموضع مخصوص. والاصطفاء تناول صفو الشيء، كما أنّ الاختيار تناول خيره، والاجتباء تناول جبايته.

آيات الاستدلال:

١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾

٣) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٤٤)﴾

٤) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾

٥) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

الآية المُفسّرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله اجتبى آدمَ ونوحًا واختارهما لدينهما، وآل إبراهيم وآل عمران لدينهم الذي كانوا عليه.

لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبرَ الله عز وجل أنه اختار دين مَنْ ذكرنا على سائر الأديان التي خالفته.(١٧)

وإنما عني بـ "آل إبراهيم وآل عمران"، المؤمنين. وقد دللنا على أن "آل الرجل"، أتباعه وقومه، ومن هو على دينه(١٨)، وبالذي قلنا في ذلك روى القول عن ابن عباس أنه كان يقوله.

حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس قوله: "إن الله اصطفى آدمَ ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين"، قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (سورة آل عمران: ٦٨)

حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: "إنّ الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآلَ عمران على العالمين"، رجلان نبيَّان اصطفاهما الله على العالمين.

حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: "إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحًا وآلَ إبراهيم وآلَ عمران على العالمين"، قال: ذكر الله أهلَ بيتين صالحين، ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمدٌ من آل إبراهيم(١٩)

وإنما جعل "بعضهم من بعض" في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (سورة التوبة: ٧١)، وقال

في موضع آخر: (الْمُ تَمَافِقُورَوَالْمُنَافِ تَقَاتُبَعْ ضُهُمْ جِزْبَ عْضٍ)(سورة التوبة: ٦٧)، يعني :أنّ دينهم واحدٌ وطريقتهم واحدة[٢٠].

وكذلك قوله: "ذرية بعضها من بعض"، إنما معناه: ذرية دينُ بعضها دينُ بعض، وكلمتهم واحدةٌ، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته[٢١]

حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: "ذرية بعضها من بعض"، يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد له.

وقوله: "والله سميعٌ عليمٌ"، يعني بذلك: والله ذُو سمع لقول امرأة عمران، وذو علم بما تضمره في نفسها، إذ نذَرت له ما في بطنها مُحَرَّرًا[٢٢]

المبحث الخامس

منهجية الحوار مع أهل الكتاب

بَـيّن القـرآن الكـريم لأتبـاع الـدين الإسـلامي أن هنـاك طـريقتين لـ "الحـوار" في جميـع مجالاتـه ومسـتوياته كافَّـة، فهنـاك طريقـة "العنـف" الـتي تعتمـد مواجهـة الخصـم بأشـدّ الكلمـات والأسـاليب وأقسـاها، بحيـث يتركـز الاختيـار علـى كـل مـا يسـاهم في إيلامـه وإهانتـه وإهـدار كرامتـه، فـلا مجـال لمراعـاة مشـاعره، ودراسـة واقـع حياتـه، والإحاطـة بظروفـه مـن أجـل المحافظـة علـى الانسجام معها، بل ربما يكون الأمر تحدّيًا للمشاعر في كل المجالات.

وهنـاك طريقـة "اللاعنـف"، أو الطريقـة السـلمية الـتي تعتمـد اللـين والمحبـة أساسًـا للجـدال، انطلاقًـا مـن القاعـدة الإسـلامية الـتي تعتـبر موضـوع الصـراع، بمختلـف مسـتوياته ومجالاتـه، وسـيلة مـن وسـائل الحركـة المنفتحـة للوصـول إلى الهـدف، وهـو الإيمـان بالحـق والوقـوف معـه، والعمـل على حشد أكبر عدد ممكن من الناس للارتباط بالهدف والانسجام معه.

ولا بـد لهـذه الطريقـة مـن اسـتخدام الكلمـات والأسـاليب الطيبـة المرنـة الـتي تفـتح القلوب على الحق، وتُقرِّب الناس إلى "المفاهيم"، بعيدا عن كل المعاني القاسية.

والداعيـة الإسـلامي النـاجح هـو الـذي يحـترم الأطـراف الأخـرى الـتي يحاورهـا، مسـلمة كانـت أو غـير مسـلمة، ويمنحهـا حقهـا المتوجـب لهـا مـن التقـدير والإنصـات، ونحـن مـأمورون أن ننـزل النـاس قـدرهم، فالمحـاور يعامـل النـاس بمـا يحـب أن يعـاملوه، فينصـت لحـديثهم ويتواضـع لهـم، ويشعرهم بتقديره لهم.

هـذا، ويتضـح لنـا مـن سـياق الآيات حـديث الحـق تبـارك وتعـالى إلـيهم، وتخصيصـهم بحـديث خـاص (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ) في أكثـر مـن موضـع مـن السـورة، حـوار مبـني علـى إقامـة الحُجـة علـيهم ودعـوتهم إلى التوحيـد، وتـرك الكُفـر والصـدود عـن سـبيل الله، كمـا جـاء علـى هـذا النحو.

آيات الاستدلال:

١) { قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْ كِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

٢) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

٣) يَٰٓأَهْلَ ٱلْ كِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَٰٓأَهْلَ ٱلْ كِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

٤) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْ كِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

الآية المُفسّرة:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْ كِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) الْآيَةَ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ الْمَدِينَةَ فَالْتَقَوْا مَعَ الْيَهُودِ فَاخْتَصَمُوا فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَزَعَمَتِ النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَهُمْ عَلَى دِينِهِ وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ :بَلْ كَانَ يَهُودِيًّا وَهُمْ عَلَى دِينِهِ وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ بَلْ

كَانَ إِبْرَاهِيمُ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَأَنَا عَلَى دِينِهِ فَاتَّبِعُوا دِينَهُ دِينَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ :يَا مُحَمَّدُ مَا تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَتَّخِذَكَ رِبًّا كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى رَبًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى :يَا مُحَمَّدُ مَا تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَقُولَ فِيكَ مَا قَالَتِ الْيَهُودُ فِي عُزَيْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ)، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ قِصَّةٍ لَهَا شَرْحٌ كَلِمَةً وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْقَصِيدَةُ كَلِمَةً {سَوَاءٍ} عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مُسْتَوِيَةٍ، أَيْ أَمْرٍ مُسْتَوٍ يُقَالُ :دَعَا فُلَانٌ إِلَى السَّوَاءِ، أَيْ إِلَى النَّصَفَةِ، وَسَوَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) (الصافات، ٥٥) وَإِنَّمَا قِيلَ لِلنِّصْفِ سَوَاءٌ لِأَنَّ أَعْدَلَ الْأُمُورِ وَأَفْضَلَهَا أَوْسَطُهَا

وَسَوَاءٌ نَعْتٌ لِكَلِمَةٍ إِلَّا أَنَّهُ مَصْدَرٌ، وَالْمَصَادِرُ لَا تُثَنَّى وَلَا تُجْمَعُ وَلَا تُؤَنَّثُ، فَإِذَا فَتَحْتَ السِّينَ مَدَدْتَ، وَإِذَا كَسَرْتَ أَوْ ضَمَمْتَ قَصَرْتَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (مَكَانًا سُوًى) (طه، ٥٨)، ثُمَّ فَسَّرَ الْكَلِمَةَ فَقَالَ: (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) وَمَحَلُّ أَنْ رَفْعٌ عَلَى إِضْمَارِ هِيَ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ:

رَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ، وَقِيلَ :مَحَلُّهُ نَصْبٌ بِنَزْعِ حَرْفِ الصِّفَةِ مَعْنَاهُ بِأَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَقِيلَ: مَحَلُّهُ خَفْضٌ بَدَلًا مِنَ الْكَلِمَةِ أَيْ تَعَالَوْا إِلَى أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (التوبة، ٣١)، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ سُجُودُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، أَيْ لَا تَسْجُدُوا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَقِيلَ :مَعْنَاهُ لَا نُطِيعُ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا فَقُولُوا أَنْتُمْ لَهُمُ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) مُخْلِصُونَ بِالتَّوْحِيدِ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمُلَيْحِي، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النُّعَيْمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْيَمَانِ الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاهَدَ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُوَ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، وَدَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ.

فَقَرَأَهُ فَإِذَا هُوَ:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ :فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢٣)

المبحث السادس
منهجية الإنصاف في الحكم

إن حقيقة الإنصاف بمعناه العلمي والخُلقي، هو إعطاء الناس ما يستحقونه كاملا، بلا بخس ولا تحيز ولا محاباة. وقد يكون ذلك بالأقوال، وقد يكون بالأفعال، أو بهما معا في آن واحد. ولا شك في أن هذا المفهوم يتشابه – ويكاد يتطابق – مع مفهوم العدل. ولذلك قال بعض العلماء: العدل والإنصاف توأمان[٢٤]

والشرع الحنيف أمرنا في غير موضع في القرآن الكريم، أن نكون منصفين مع جميع خلق الله مسلمهم وكافرهم، قريبهم وبعيدهم، ومنها ما ذُكر في هذه السورة.

آيات الاستدلال:

١) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

٢) لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

٣) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

الآية المُفسّرة:

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

قال الإمام الرازي: اعلم أن تعلق هذه الآية – وهي قوله – ومن أهل الكتاب. ..بما قبلها من وجهين[٢٥]:

الأول: أنه – تعالى – حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم ادعوا أنهم أوتوا من المناصب الدينية ما لم يؤت أحد غيرهم مثله، ثم إنه – تعالى – بين أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان وهم مصرون عليها فدل هذا على كذبهم.

والثاني: أنه – تعالى – لما حكى عنهم في الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) حكى في هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير.

قال ابن عباس: أودع رجل عند عبد الله بن سلام ألفا ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه. وأودع رجل آخر عند فنحاص بن عازوراء اليهودي دينارا فخانه فنزلت الآية »١«.

والمعنى: إن من أهل الكتاب فريقا إن تأتمنه على الكثير والنفيس من الأموال يؤده إليك عند طلبه كاملا غير منقوص، وإن منهم فريقا آخر إن تأتمنه على القليل والحقير من حطام الدنيا يستحله ويجحده ولا يؤديه إليك إلا إذا داوم صاحب الحق على المطالبة بحقه واستعمل كل الوسائل في الحصول عليه.

فالآية الكريمة قد مدحت من يستحق المدح من أهل الكتاب وهو الفريق الذي استجاب للحق وآمن بالنبي صلّى الله عليه وسلّم كعبد الله بن سلام وأمثاله من مؤمني أهل الكتاب. وذمت من يستحق الذم منهم وهو الفريق الذي لا يؤدي الأمانة، ولم يستجب للحق، بل استمر على كفره وجحوده، وهذا القسم يمثل أكثرية أهل الكتاب.

والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا العدد الكثير والعدد القليل. أي أن منهم من هو في غاية الأمانة، حتى إنه لو اؤتمن على الأموال الكثيرة لأداها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى أنه لو أؤتمن على الشيء القليل لجحده.

وقوله إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِما استثناء من أعم الأحوال، أو الأوقات؛ أي لا يؤديه إليك في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا في حال أو في وقت مداومتك على طلبه، والإلحاح في ذلك، واستعمال كل الوسائل للوصول إلى حقك.

قال الجمل: و"دمت" هذه هي الناقصة، ترفع وتنصب، وشرط إعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية: إذ التقدير إلا مدة دوامك. وأصل هذه المادة للدلالة على الثبوت والسكون. يقال: دام الماء، أي سكن. وفي الحديث: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم" أي الذي لا يجري.. ومنه دام الشيء إذا امتد عليه زمان. ودامت الشمس إذا وقفت في كبد السماء وقوله عَلَيْهِ متعلق بقوله قائِما والمراد بالقيام الملازمة، لأن الأغلب أن المطالب يقوم على رأس المطالب، ثم جعل عبارة عن الملازمة وإن لم يكن ثمة قيام.(٢٦)

قال ابن جرير: فإن قال قائل: وما وجه إخبار الله بذلك نبيه صلّى الله عليه وسلّم وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك، منهم المؤدي أمانته ومنهم الخائن لها؟ قيل: إنما أراد – عز وجل – بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه في كتابه بهذه الآية، تحذير المؤمنين من أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم من الاغترار بهم، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين.(٢٧)

ثم حكى – سبحانه – بعض الأسباب التي جعلتهم يبررون خيانتهم وجحودهم لحقوق غيرهم فقال – تعالى –: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ.وقوله ذلِكَ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله – سبحانه – لا يُؤَدِّهِ.

والمراد بالأميين: العرب، خصوصا من آمن منهم، وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم، وذلك لغلبة الأمية عليهم لكأن الواحد منهم قد بقي على الحالة التي ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة.

والسبيل: المراد به: الحجة الملزمة والحرج. وأصله الطريق، ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقا ووسيلة للإلزام وتحمل التبعات.

أي: ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخائن. سببه زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة في استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة، لأن الأميين ليسوا على ملتهم. واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم، كما يحل لهم أخذ ما له بأي وسيلة.

وهذا الخلق الذميم معرق في اليهود، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريما مطلقا فتقول: "لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته" فحرف اليهود هذا النص: إذ زادوا فيه كلمة الإسرائيلي فأصبح النص هكذا "لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته" وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند تعاملهم مع أنفسهم ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم، لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة.

قال الألوسي: أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم عن بيوعهم فقال اليهود: ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم.

وقال الكلبي: قالت اليهود: "الأموال كلها كانت لنا، فما في أيدى العرب منها فهو لنا، وأنهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم"(٢٨)

وقوله – تعالى – وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، وتكذيب لهم فيما زعموه، لأن قولهم هذا ما أنزل الله به من سلطان، ولا يؤيده عقل سليم، إذ المبادئ الخلقية الفاضلة يجب أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم.

والمعنى: أن هؤلاء اليهود الذين يجحدون الأمانات متذرعين بقولهم لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، يفترون على الله الكذب في قولهم هذا، وهم يعلمون أنه كاذبون، لأنهم ليس عندهم في كتبهم نص يبيح لهم استحلال أموال العرب وخيانتهم، وإنما الذي تأمرهم به كتبهم هو أداء الأمانة لمستحقيها بالمعروف.

وقوله وَهُمْ يَعْلَمُونَ جملة حالية من الضمير في يَقُولُونَ ومفعول العلم محذوف اقتصارًا، أي وهم من ذوي العلم. أو اختصارًا، أي يعلمون كذبهم وافتراءهم.

ولقد بين النبي صلّى الله عليه وسلّم في أحاديث متعددة أن الأمانة يجب أن تؤدي إلى البار والفاجر، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قال: لما نزلت: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ الآية .قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: كذب أعداء الله!! ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر.(٢٩)

ولقد سار أتباع النبي صلّى الله عليه وسلّم على مبدأ أداء الأمانة، وعدم أخذ شيء من أموال الغير إلا بوجه مشروع.

قال ابن كثير: "قال عبد الرازق: أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن أبي صعصعة بن يزيد. أن رجلا سأل ابن عباس: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة: الدجاجة والشاة.

قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.(٣٠)

ثم أكد الله – تعالى – كذب هؤلاء اليهود الذين قالوا: لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ بجملة أخرى فيها الرد الذي يخرس ألسنتهم، ويدحض مزاعمهم فقال – تعالى –: بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

وبَلى حرف يذكر في الجواب لإثبات المنفي في كلام سابق، ولقد حكى القرآن قبل ذلك أن اليهود قد نفوا أن يكون عليهم في الأميين سبيل. فجاء – سبحانه – بهذا الرد الذي يثبت ما نفوه. ويبطل ما زعموه.

والمعنى: ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود من أنه ليس عليكم في الأميين سبيل، بل الحق أن عليكم فيهم سبيل. وأنكم معذبون بسبب كفركم واستحلالكم لأموالهم بدون حق ومثابون إن آمنتم بالله ورسوله ووفيتم بعهودكم، وصنتم أنفسكم من كل ما يغضب الله – تعالى –.

وقد علل – سبحانه – هذا الحكم العادل بجملة مستأنفة عامة فقال: مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

أي كل من أوفى بعهد الله فآمن بنبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم واستقام على دينه، واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك من المحرمات، فإن الله يحبه

ويرضى عنه، ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه ولا يحبه ويعذبه العذاب الأليم. وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت أن محبة الله لعبده تتوفر بأمرين:

أولهما: الوفاء بالعهد. فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود فالوفاء بها واجب. وفي مقدمة هذه العهود، العهد الذي أخذه الله على عباده بتوحيده والإيمان برسله وعلى رأسهم محمد صلّى الله عليه وسلّم.

وثانيهما: تقوى الله بمعنى أن يجتنب ما نهى الله عنه وحرمه عليه، ولا يفعل إلا ما أحله الله وأذن له فيه.

وقد خلا اليهود من هذين الأمرين، لأنهم لم يفوا بعهودهم، ولم يتقوا الله، فسلبت عنهم محبته، واستحقوا غضبه — سبحانه – ونقمته.

قال صاحب الكشاف: قوله — تعالى – بَلى إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدّت بَلى مسدها. والضمير في بِعَهْدِهِ راجع إلى مَنْ أَوْفى على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله بأن ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه.

فإن قلت: فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم.

ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه، ويجوز أن يرجع الضمير في "بعهده" إلى الله، على أن كل من وفي بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من لصالحات، وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وبهذا يكون القرآن قد كشف عن مكر اليهود وخداعهم، ورد عليهم فيما افتروه من أقوال باطلة، وأثبت أنهم يكذبون فيما يدعون عن تعمد وإصرار، وبين أن أداء الأمانة واجب على كل إنسان، وأن كل من وفي بعهود الله واتقاه فهو أهل لمحبته ورضاه.

المبحث السابع
منهجية الحجة والدليل والبرهان

لما كان القرآن الكريم كتاب يُخاطب العقل والقلب والروح، فهو يرفض كل ادعاء ليس عليه بيّنة، ولا حُجة ولا برهان، بل إن إنزال الكتاب وإرسال الرُسُل هي حُجة من الله على خلقه يوم القيامة، فنجده يُقيم الحُجة على أهل الكتاب في هذه الآيات فيما يدّعون من قول زور وبُهتان على نبي الله عيسى عليه السلام.

آيات الاستدلال:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩)﴾

الآية المُفسّرة:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾

قال تعالى ردًّا على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة (ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ) أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله.

والنفيُ في مثل هذه الصيغة (مَا كَانَ) إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلا ثبوتُه والغرض أنه لا يصح أصلا ولا يتصور عقلا صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟ (وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيّين قال ابن عباس: حكماء علماء حلماء والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عبادا لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله (بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا) أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله – ملائكة أو أنبياء – لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له (أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)أي يأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري تعجبي.(٣١)

المبحث الثامن

منهجية الدعوة وشروط الخيرية

عُلم أنَّ القرآن الكريم كتابُ هدايةٍ وإرشاد، ولم يكن ليكون كذلك إلَّا حينما كان شاملًا لجميع مجالات ومتطلبات حياة الإنسان، ومنها ما يتعلَّق بالديانات السماويَّة، ومنها ما يتعلَّق بالدعوة إلى الله وكيفيَّةِ تبليغ الرِّسالة...

وأن الدعوة هي مهمة الرُسُل والأنبياء وأتباعهم من بعدهم، وأن خيرية هذه الأمة وتفضيلها على سائر الأمم هي حمل دعوة الله إلى العالمية هدايةً وبلاغا.

آيات الاستدلال:

١) كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١١٠)

٢) وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٤)

الآية المُفسّرة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

يَتَنَزلُ هَذَا مَنْزِلَةَ التَّعْلِيلِ لِأَمْرِهِمْ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَمَا بَعْدَهُ فَإِنَّ قَوْلَهُ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ كُنْتُم، فَهُوَ مؤذن بِتَعْلِيلِ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ مَا كَانَ فِيهِ خَيْرِيَّتُهُمْ يَجْدُرُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَفْرُوضًا مِنْ قَبْلُ، وَأَنْ يُؤَكَّدَ عَلَيْهِمْ فَرْضُهُ، إِنْ كَانَ قَدْ فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ.

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ كُنْتُمْ إِمَّا لِأَصْحَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ .قَالَ عُمَرُ :هَذِهِ لِأَوَّلِنَا وَلَا تَكُونُ لِآخِرِنَا .وَإِضَافَةُ خَيْرَ إِلَى أُمَّةٍ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ أَيْ:ـ كُنْتُمْ أُمَّةً خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَالْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ الْجَمَاعَةُ، وَأَهْلُ الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ، مِثْلُ الْقَرْنِ، وَهُوَ إِطْلَاقٌ مَشْهُورٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [يُوسُف: ٤٥] أَيْ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ كَمُدَّةِ عَصْرٍ كَامِلٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا أَفْضَلَ الْقُرُونِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْعَالَمِ، لِأَنَّ رَسُولَهُمْ أَفْضَلُ الرُّسُلِ، وَلِأَنَّ الْهَدْيَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ لَا يُمَاثِلُهُ هَدْيُ أَصْحَابِ الرُّسُلِ الَّذِينَ مَضَوْا، فَإِنْ أَخَذْتَ الْأُمةَ بِاعْتِبَارِ الرَّسُولِ فِيهَا فَالصَّحَابَةُ أَفْضَلُ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ مَعَ رَسُولِهَا.

قَالَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي)

وَالْفضل ثَابت للجموع عَلَى الْمَجْمُوعِ، وَإِنْ أُخِذَتِ الْأُمَّةُ مَنْ عَدَا الرَّسُولَ، فَكَذَلِكَ الصَّحَابَةُ أَفْضَلُ الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ بِدُونِ رُسُلِهَا، وَهَذَا تَفْضِيلٌ لِلْهُدَى الَّذِي اهْتَدَوْا بِهِ، وَهُوَ هُدَى رَسُولِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرِيعَتِهِ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ بِضَمِيرِ كُنْتُمْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ فِي كُلِّ جِيلٍ ظَهَرُوا فِيهِ، وَمَعْنَى تَفْضِيلِهِمْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ مَعَ كَوْنِهِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ لَا تَقُومُ بِهِ جَمِيعُ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ لَا يَخْلُو مُسْلِمٌ مِنَ الْقِيَامِ بِمَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، عَلَى حَسْبِ مَبْلَغِ الْعِلْمِ وَمُنْتَهَى الْقُدْرَةِ، فَمِنَ التَّغْيِيرِ عَلَى الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، إِلَى التَّغْيِيرِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْبَلَدِ، أَوْ لِأَنَّ وُجُودَ طَوَائِفِ الْقَائِمِينَ بِهَذَا الْأَمْرِ فِي مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ أَوْجَبُ فَضِيلَةٍ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، لِكَوْنِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ مِنْهَا كَمَا كَانَتِ الْقَبِيلَةُ تفتخر بِمَحَامِد طوائفها، وَفِي هَذَا ضَمَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْقَطِعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِعْلُ (كَانَ) يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ مَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ فِي زَمَنٍ مَضَى، دُونَ دَلَالَةٍ عَلَى اسْتِمْرَارٍ، وَلَا عَلَى انْقِطَاعٍ، قَالَ تَعَالَى وَكَانَ اللَّهُ غَفُورا رَحِيما [النِّسَاء: ٩٦] أَيْ وَمَا زَالَ، فَمَعْنَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ وُجِدْتُمْ عَلَى حَالَةِ الْأَخْيَرِيَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، أَيْ حَصَلَتْ لَكُمْ هَذِهِ الْأَخْيَرِيَّةُ بِحُصُولِ أَسْبَابِهَا وَوَسَائِلِهَا، لأنّهم اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ، وَالدَّعْوَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَإِقَامَتِهِ عَلَى وَجهه، والذبّ عَنهُ النُّقْصَانِ وَالْإِضَاعَةِ لِتَحَقُّقِ أَنَّهُمْ لَمَّا جُعِلَ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبِهِمْ، وَقَدْ قَامَ كُلٌّ بِمَا اسْتَطَاعَ، فَقَدْ تَحَقَّقَ مِنْهُمُ الْقِيَامُ بِهِ، أَوْ قَدْ ظَهَرَ مِنْهُمُ الْعَزْمُ عَلَى امْتِثَالِهِ، كُلَّمَا سَنَحَ سَانِحٌ يَقْتَضِيهِ، فَقَدْ تَحَقَّقَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ عَلَى الْإِجْمَالِ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ. هَذَا إذا بنينَا عَلَى كَوْنِ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ آنِفًا وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.(٣٢)

المبحث التاسع
منهجية تصويب الخطأ في التصورات

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع، وقد كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسبًا للأحداث التي تمر بها الجماعة المسلمة الوليدة التي تُصنع على عين الله تبارك وتعالى، مبينًا ومُصوِّبًا لها كثيرًا من التصورات حول الكون والحياة والآخرة وموازين القوى، وأسباب النصر والهزيمة وحالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، فغيَّرَ لهم كثيرًا من الموازين والقيم التي كانوا عليها وأرسى أخرى بدلًا عنها.

آيات الاستدلال:

١) {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)}

٢) {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)}

٣) {يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۗ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤)}

٤) {وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)}

٥) {وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)}

٦) {لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) }

٧) { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧)}

الآية المُفسّرة:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

هذه الآيات الكريمة (فيها فضيلة) الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله) أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله (أمواتا) أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، [١٥٧] الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة، (بل) قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم (أحياء عند ربهم) في دار كرامته.

ولفظ: (عند ربهم) يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، (يرزقون) من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا (فرحين بما آتاهم الله من فضله)

أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا (يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أي: يبشر بعضهم بعضا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل) أي: يهنيء بعضهم بعضا، بأعظم مهنأ به، وهو :نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.[٣٣]

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضا.

المبحث العاشر

منهجية نبذ الفرقة والحث على الاعتصام والوحدة

لا يوجد دين كدين الإسلام حث على الاجتماع، وحذر من الافتراق، بل لقد استطاع تحويل المجتمعات الممزقة المفرقة إلى مجتمع واحد متماسك متآزرٍ متآخٍ متآلفٍ، يرحم بعضه بعضا. ومن هنا لا بد أن يعلم الناس جميعا أنهم كلما زاد تمسكهم بالدين كلما زادت وحدتهم وألفتهم، وكلما بعدوا عن الدين تفرقوا وتمزقوا.

إذ حذر الله من التنازع وبين أنه طريق الفشل، فقال: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (٤٦) سورة الأنفال

آيات الاستدلال:

١) وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

٢) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

٣) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

٤) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا

وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

٥) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

الآية المُفسّرة:

"وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يعينهم على التقوى؛ وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام.

المبحث الحادي عشر

منهجية الصبر من عدة المؤمنين

تتسع دائرة الصبر لتشمل الكثير من الأمور، فأحيانًا يكون على هيئة الابتلاء كأن يُصاب الشخص بالفقر أو المرض أو يُمتحن بموت أحد أقربائه، وأحيانا يكون على الشدائد والمصائب، والصَبر على التعب والهم والحزن وعلى أداء العبادات وغير ذلك عدد من الأشياء والأمور التي تُرهق النفس وتتعبها، وكلما كان الإنسان ذا مستوى صبر عالٍ كلما لاقى وحصل على جزاء أفضل وأقدس مكانةً وأعلى في منازل الجنة؛ ونظرا لأن الله تعالى هو الذي يقوم بكتابة الأقدار، فمن يسعى للصبر على قدر الله فكأنه يقوم بالجهاد في سبيله.

وهذه السورة قد ورد فيها الصبر في أكثر من موضع، ولكل موضع إشارة خاصة.

آيات الاستدلال:

١) بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

٢) وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٣٩)

٣) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦)

٤) لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (١٨٦)

٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٢٠٠)

الآية المُفسّرة:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٢٠٠)}

إنه النداء العلوي للذين آمنوا. نداؤهم بالصفة التي تربطهم بمصدر النداء. والتي تلقي عليهم هذه الأعباء. والتي تؤهلهم للنداء وتؤهلهم للأعباء، وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السماء: (يا أيها الذين آمنوا)[٣٤].

النداء لهم. للصبر والمصابرة، والمرابطة، والتقوى..

وسياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى.. يذكر إن مفردين، ويذكر إن مجتمعين.. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلة، ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة، وإلى المرابطة والتقوى، فيكون هذا أنسب ختام.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاقٌّ، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغيظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحيانا في الخير، وقلة الرجاء أحيانا في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع..

والصبر على هذا كله – وعلى مثله – مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل.. لا تصوره حقيقة الكلمات. فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي. فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء. كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه..

والمصابرة.. وهي مفاعلة من الصبر.. مصابرة هذه المشاعر كلها، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين.. مصابرتها ومصابرتهم، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة. بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى: أعدائهم من كوامن الصدور، وأعدائهم من شرار الناس سواء. فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهد بالجهد، والإصرار بالإصرار.. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء. وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق، فما أجدر الحق أن يكون أشدَّ إصرارًا، وأعظمَ صبرًا على المضي في الطريق!

والمرابطة.. الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء.. وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدا، ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعداؤها قط، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، والتعرض بها للناس. وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني عن المرابطة للجهاد، حيثما كانت إلى آخر الزمان!

إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي. منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم. ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقي ؛ والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة؛ والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة.. ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان. ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال. وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار. وينهد لحربها المستهترون المنحلون، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات.. ولا بد من مجاهدتهم جميعا. ولا بد من الصبر والمصابرة. ولا بد من المرابطة والحراسة. كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين، الدائمين في كل أرض وفي كل جيل..

هذه طبيعة هذه الدعوة، وهذا طريقها.. إنها لا تريد أن تعتدي ؛ ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم.. وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام. ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد. ومن يتربص بها الدوائر. ومن يحاربها باليد والقلب

واللسان.. ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها، ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!

والتقوى.. التقوى تصاحب هذا كله. فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل؛ ويحرسه أن يضعف؛ ويحرسه أن يعتدي؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك.

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ، إلا من يعاني مشاق هذه الطريق؛ ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات..

إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات. وهو جماعها كلها، وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها.. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار (لعلكم تفلحون)... وصدق الله العظيم.

نتائج البحث

١) السورة عالجت قضية العقيدة بشكل عام والإيمان بالله وحده، وإزالة اللبس في خلق عيسى عليه السلام خاصةً.

٢) الخط الأبرز والأوضح في السورة هو مسألة التوحيد وإرجاع الأمر كله إلى الله الخالق.

٣) أخذت آيات السورة الجانب القصصي المحبب إلى النفس والعقل في تناولها لآل عمران الأسرة المباركة.

٤) دعت منهجيات السورة إلى اعتناق الإسلام ونبذ ما سواه من الأديان.

٥) أن منهجيات السورة قد اشتملت على عدة جوانب مثل العقيدة والشريعة والدعوة والأخلاق، فهي كسورة واحدة تصلح أن تكون منهج حياة.

٦) تزكية جانب التفكر والتدبر في آيات الله.

٧) أن القرآن الكريم كلما بحثت فيه بدا لك شيءٌ من كنوزه وأنها لا يُمكن أن تُكتشف بمجرد القراءة بل بالوقوف عند آياته وتدبرها.

توصيات البحث

١) إحياء جانب التفكر والتدبر في آيات الله.

٢) إن جانب العقيدة وتوحيد الله، من أهم الأمور التي يجب أن يُدعى إليها بشكل دائم متواتر.

٣) أهمية الجانب القصصي في القرآن الكريم ومنها قصة آل عِمران.

٤) محاولة فهم القرآن بمنهجيات مختلفة كما تبين من خلال هذا البحث الذي بين أيدينا وتعميمه على جهات الاهتمام.

الهوامش

١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مادة "نهج".

٢) ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦ هـ/ ١١٨٩م، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩ه /١٩٧٩م، [١-٥]، ٢، باب الراء مع الباء، ٤٥٠.

٣) الحنفي، عبد المنعم، تجلّيات في أسماء الله الحُسنى، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ٤٩.

٤) الزهوري، بهاء الدين، المنهج التربوي الإسلامي للطفل، حمص، مطبعة اليمامة، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م، ١٦.

٥) المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت ١٠٣١هـ/١٦١٢م)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٤١٠ه/١٩٩٠م، باب التاء، فصل الراء، ١٦٩.

٦) أحمد، محمد حسين، الأهداف التربوية للعبادات في الإسلام، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التربية، كلية التربية، جامعة طنطا، قسم أول التربية، غير منشورة، ١٤.

٧) بديوي يوسف وقاروط، محمد محمد، تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة، دمشق، دار المكتبي، [١-٢]، ط٢، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٣م، ١، ١٤.

٨) الخمشي، د. سارة صالح عيادة، قسم التخطيط الاجتماعي، كلية الخدمة الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، دور التربية الأسرية في حماية الأبناء من الإرهاب، ٧.

٩) بديوي، يوسف وقاروط، محمد محمد، تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة، ١، ١٦

١٠) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، ١٣٩٩ه / ١٩٧٩م، ١/ ١٨٩

١١) أبو العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٥/ ١٥٧-١٥٨.

١٢) محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص ١٧.

١٣) سعيد الكبيسي: مقال " معًا نتدبر القرآن . سورة آل عمران / إثبات التوحيد والعمل بمقتضياته" ٩ مايو ٢٠١٩

١٤) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ص ١٢١

١٥) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ج ٢ ص ٣٧، ٣٨

١٦) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص٢٨٣

١٧) أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، توزيع: دار التربية والتراث، مكة المكرمة، ص.ب: ٧٧٨٠، بدون تاريخ، ج/٣، ص ٣٢٦، ٣٢٧

١٨) انظر تفسير "اصطفى" فيما سلف ٣: ٩١، ٦٩ / ثم ٥: ٣١٢، ٣١٣.

١٩) انظر ما سلف ٢: ٣٧ / ٣: ٢٢٢، تعليق: ١.

٢٠) في المطبوعة: "المطيعين لربهم"، كما في الدر المنثور ٢: ١٧، ١٨، ولكن المخطوطة واضحة جدًا، ومطابقة لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم.." ..

٢١) انظر ما سلف في معنى"القطع"، وهو الحال، قريبًا ص: ٢٧٠، تعليق: ٣.

٢٢) انظر: الفراء، معاني القرآن، ١: ٢٠٧.

٢٣) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ج ٢، ص ٤٩، ٥٠، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

٢٤) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص ٦٤، تحقيق عبد الحميد حمدان . القاهرة ١٤١٠).

٢٥) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة — القاهرة، الطبعة الأولى، الجزء ٢، من ص ١٤٧ — ١٥٢، يناير ١٩٩٧

٢٦) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٨٨.

٢٧) تفسير ابن جرير، ج ٣، ص ٣١٧، طبعة مصطفى الحلبي.

٢٨) تفسير الآلوسي، ج ٢، ص ٥٠٢.

٢٩) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٣١٨<

٣٠) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٤.

٣١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ج١، ص ١٩٣، ١٩٤

٣٢) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي المتوفى: ١٣٩٣هـ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ج ٤، ص ٤٨، ٤٩، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين)

٣٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م، ص ١٥٦

٣٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية السادسة والثلاثون، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، ص ٣٤٨.

قائمة المصادر والمراجع

١) **ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦هـ/١١٨٩م**، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٢) **أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)** معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣) **أحمد، محمد حسين**، الأهداف التربوية للعبادات في الإسلام، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التربية، كلية التربية، جامعة طنطا، قسم أول التربية، غير منشورة.

٤) **بديوي يوسف وقاروط، محمد محمد**، تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة، دمشق، دار المكتبي، [١-٢]، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٥) **أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤/٣١٠هـ)** جامع البيان عن تأويل آي القرآن، توزيع: دار التربية والتراث، مكة المكرمة، ص.ب: ٧٧٨٠، بدون تاريخ.

٦) **الحنفي، عبد المنعم**، تجلّيات في أسماء الله الحُسنى، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٧) **الخمشي، د. سارة صالح عيادة**، قسم التخطيط الاجتماعي، كلية الخدمة الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، دور التربية الأسرية في حماية الأبناء من الإرهاب.

٨) **الزهوري، بهاء الدين**، المنهج التربوي الإسلامي للطفل، حمص، مطبعة اليمامة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩) **سيد قطب**، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية السادسة والثلاثون، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٠) **سعيد الكبيسي**: مقال "معًا نتدبر القرآن – سورة آل عمران/ إثبات التوحيد والعمل بمقتضياته" ٩ مايو ٢٠١٩.

١١) **أبو العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني**، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة ابن تيمية، ط٢٨.

١٢) **عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)** تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٣) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٣٧، ٣٨.

١٤) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

١٦) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى، الجزء٢، يناير ١٩٩٧.

١٧) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي المتوفى: ١٣٩٣هـ، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ج٤، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٨) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م.

١٩) المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت ١٠٣١هـ/١٦١٢م)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.